القصدُ والبراعةُ في الحِوارِ بينَ أصالةِ الآباءِ ونجابةِ الأبناءِ

محمد ياسر الدباغ

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد العرب والعجم، وإمام الخطابة والفصاحة، وأفصح من نطق بالضاد، وعلى آله وصحبه، وسار على نهجه، وطبق شرعه، ومن اهتدى بهديه، ورفع لواء البلاغة والبيان، ورضي الله عن صحابته ذوي الأصالة والطهارة، ومن تربى في حجر النبوة؛ فكانت لهم أبوة في السلوك وكانوا لها أبناء بررة في البنوة؛ فهذا رابع الخلفاء الراشدين علي رضي الله عنه يجري حوارا بينه وبين ابنه الحسن سيد شباب أهل الجنة رضي الله عنه وهو أشبَه الناس بالنبيِّ محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بخَلقه وخُلقه؛ ليعلم الآباء كيف يكون الحوار بينهم وبين فلذات أكبادهم وريحانة قلوبهم، وكيف يمتاز هذا الحوار بالأصالة والنزاهة، والقصد والبراعة، إنه حوار يكشف للإنسان العاقل الواعي الحصيف مكنون صدور أصحابه، ويظهر جواهر معدن قائله ونفاسته، ويبرز للعالم التحرير إشراقة قلبه، ورفعة مقصده، وصدق محاوره. إنه حوار يشع سناه، ويلمع بريق ناطقه، ويبين جمال منطقه. حوار يبين كيف رضع هذا السيد الجليل وابنه الحصيف الفصيح لبان النبوة وروعة البيان، ولم لا وقد تربى الأب وابنه في حجر النبوة المطهرة، وكيف تشرب الابن من أمه الطاهرة فاطمة الزهراء سلوك الآداب القرآنية ممن كان خلقه القرآن، وممن كان قرآنا يمشي على الأرض صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. حقا إنه حوار النزه وجواب الفقيه، يعلم كيف تكون المحاورة كيلا يستبد أحد؛ سواء الآباء أو الأمهات، أو الأبناء أو البنات-في الرأي ولو كانوا أكبر سنا، وأكثر علما؛ فليس كل من فوق لا يُعان، وليس كل من تحت لا يُعين والله تعالى يقول (وفوقَ كلِّ ذِي علم عليمٌ) (يوسف٧٦)؛ فلا إسعاد مع استبداد، ولا نزاهة مع سفاهة، ولا رجولة بلا فتوة، ولا فتوة بلا قوة، ولا قوة بلاً حجة؛ فما أروع قوة الحجة! وما أقبح حجة القوة! إنه البيان الكافي والجواب الشافي الذي لا يدع مجالا لشك أو ظن؛ بل بيان وتبيان، ويمن ويقين. بيان الواثق بما يقول يستوعب ما يلقى عليه من أسئلة تظهر خبيئة نفسه، ومكنون صدره، وجوهر عقله، وغزارة علمه، وطول تجاربه؛ فالعقل بالتجارب. ومن تربى على شيء شاب عليه، وما أجمل أن يشب الإنسان على الفصاحة والبيان وتلاوة القرآن مع تدبر معانيه، وفهم أسراره في كل آن، لاسيما في هذا الشهر الكريم- شهر رمضان-وما أجمل أن يشيب الإنسان على هذا السلوك؛ ليظهر نور الله تعالى في بياض شَعَره، ووقار هيئته، وهيبة مجلسه، ومحبة جلاسه؛ ليكون نورا (ظاهرا وباطنا، شاكلة وشكلا، قلبا وقالبا)؛ فتتحد الأنوار وتتلألأ؛ إنه نور الإيمان، ونور القرآن، ونور الشيب من الله الجميل الرحمن؛ فهيا بنا جميعا؛ لنرى هذا الحوار بما فيه من مقصد حسن، وحسن منطق، وبراعة وبلاغة، وبيان وتبيان، نقرأ بعين البصر والبصيرة، ونسمع بآذان واعية، وقلوب نيرة؛ لنطبق هذا الكلام الموجز، وهذا الحوار الأصيل، وذاك الجواب من فتى لبيب نجيب؛ فيكون لنا درسا في بيوتنا ومساجدنا ومجالسنا، فهلمُّوا؛ لنقرأ ونهنأ، ونستمع فنستمتع، وكلنا آذان صاغية، وقلوب واعية، وعقول متفتحة؛ ف"جمال الرجل فصاحة لسانه" و "خير الكلام ما قلّ ودلّ" ونتعلم كيف يكون حوار السادة الذين تحققوا بمعاني السعادة، وكيف سادوا الأمم، وشادوا بناء الأخلاق والقيم، وكيف نهضوا بشعوبهم؛ فحققوا مراد الله تعالى منهم، فرضي الله تعالى عنهم وأرضاهم:

لقد ذكرت كتب التاريخ: أن عليا رضي الله عنه سأل ابنه الحسن عن أشياء عن المروءة:

فقال: "يا بني ما السَّداد؟"، قال: "يا أبتِ السداد دفع المنكر بالمعروف".

قال: "فما الشرف؟" قال: "اصطناع العشيرة وحمل الجريرة".

قال: "فما المروءة؟" قال: "العفاف وإصلاح المرء مالَه".

قال: "فما الدِّقَّة؟" قال: "النظر في اليسير ومنع الحقير" - الشيء اليسير-.

قال: "فما اللؤم؟" قال: "إحراز المرء نفسه وبذله بحرصه".

قال: "فما السماحة؟" قال: "البذل في اليسر والعسر؟".

قال: "فما الشح؟" قال: "أن ترى ما في يديك ترفا وما أنفقته تلفا".

قال: "فما الإخاء؟" قال: " الوفاء في الشدة والرخاء".

قال: "فما الجبن؟" قال: " الجرأة على الصديق والنكول على العدو".

قال: "فما الغنيمة؟" قال: "الرغبة في التقوى، والزهادة في الدنيا هي الغنيمة الباردة".

قال: "فما الحلم؟" قال: "كظم الغيظ ومَلْكُ النفس".

قال: "فما الغنى؟" قال: "رضا النفس بما قسم الله لها وإن قلَّ؛ فإنما الغنى غنى النفس".

قال: "فما الفقر؟" قال: "شره النفس في كل شيء".

قال: "فما الذل؟" قال: "الفزع عند المصدوقة"-الحملة الصادقة ليس لها مكذوبة-.

قال: "فما الجرأة؟" قال: "موافقة الأقران".

قال: "فما الكُلفة؟" قال: "كلامك فيما لا يعنيك".

قال: "فما المجد؟" قال: "أن تعطي في الغُرم وأن تعفو عن الجُرم".

قال: "فما العقل؟" قال: "حفظ القلب كل ما استرعيته".

قال: "فما الخُرق؟"- الجهل والحمق- قال: "معاداتك إمامك، ورفعك عليه كلامك".

قال: "فما الثناء؟" قال: "إتيان الجميل وترك القبيح".

قال: "فما الحزم؟" قال: "طول الأناة والرفق بالولاة، والاحتراس من الناس بسوء الظن هو الحزم".

قال: "فما الشرف؟" قال: "موافقة الإخوان، وحفظ الجيران".

قال: "فما السفه؟" قال: "اتباع الدُّناة، ومصاحبة الغواة".

قال: "فما الغفلة؟" قال: "تركك المسجد، طاعتك المفسد".

قال: "فما الحرمان؟" قال: "تركك حظَّك وقد عُرض عليك".

قال: "فما السيد؟" قال: المحتزن بأمر العشيرة المهتمُّ بأمرهم.

ثم قال عليّ: يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من العقل، ولا وحدة أوحش من العُجب، ولا مظاهرة أوثق من المشاورة، ولا عقل كالتدبير، ولا حسب كحُسن الخُلق، ولا ورع كالكفِّ، ولا عبادة كالتفكر، ولا إيمان كالحياء، ورأس الإيمان الصبر، وآفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان، وآفة الحلم السفه، وآفة العبادة الفترة، وآفة الظرف الصلَف، وآفة الشجاعة البغي، وآفة السماحة المنُّ، وآفة الجمال الخُيلاء، وآفة الحب الفخر".

ثم قال علي:" يابنيّ، لا تستخفن برجل تراه أبداً؛ فإن كان أكبر منك فعدُّ أنه أبوك، وإن كان مِثلكَ فهو أخوك، وإن كان أصغر منك؛ فاحسب أنه ابنك".

حقا إنها الحِكم والدُّررُ ممن تربى في مدرسة النبوة ___مدرسة الآل الأطهار والصحابة الأبرار؛ (رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه). وعلينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين. اللهم آمين.